أيام الثقافة

الأيام الثلاثاء ٢٠١٨/٣/١٣ الموافق ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٣٩ هـ العدد ٨٠٠٩ السنة الثالثة والعشرون

AL-AYYAM Tuesday 13/3/2018 Issue No.8009 Volume 23

يصدر كل يوم ثلاثاء

«الخائفون» لديمة ونوس .. «كنت في الرابعة عشرة، وما زلت»!

كتبت بديعة زيدان:

"كنت في الرابعة عشرة، وما زلت" .. عبارة كررتها الروائية السورية ديمة ونوس، في روايتها "الخائفون" الصادرة عن دار الآداب للنشر والتوزيع في بيروت، والمرشحة للمنافسة على الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) لهذا العام، من بين ست روايات وصلت إلى القائمة القصيرة للجائزة، وهي رواية غلبت عليها الأسئلة، التي يبدو أنها انعكاس لحالة اللايقين التي تعيشها سورية منذ سنوات "ما بعد الثورة".

في الرابعة عشرة من عمرها، توفي والد الشخصية الرئيسة في الرواية، والتي تتراوح ما بين سلمى وسليمى، في رواية "توهان" تعكس حالة التيه التي يعيشها السوري، فلا يمكن الفصل بينهما، كما لا يمكن الفصل بين الواقع والمتخيل في الرواية التي هي انعكاس لعقود من الحياة في سورية، حتى إنه يمكن إسقاط الكثير من تفاصيل الرواية على ونوس نفسها.

الشخصية المحورية منقسمة ما بين اثنتين يفصل بينهما حرف "الياء"، إحداهما هي الراوية، والأخرى مخلوقة شكلتها أوراق الطبيب النفساني الذي يعالجها منذ ما بعد رحيل والدها واختطاف شقيقها في وقت لاحق، ما يتسبب في تشتت القارئ أيضاً، كجزء من شتات الواقع المعيش في بلاد لا تزال تعيش عذابات يومية بيد أهلها الذين "يخافون من الخوف"، وبيد غير أهلها أيضاً.

في الرواية ثمة الكثير من الخائفين، من بينهم "نسيم"، الطبيب الذي يعاني اضطرابات نفسية، وتتعرف إليه سلمى أو سليمى، وهما توأمان لا نعرف أياً منهما سر أبية، وكأنهما حالة "الشيزوفرينيا" التي تعيشها البلد، ليس فقط منذ "الثورة" بل منذ عقود .. و"نسيم" هذا يرحل إلى ألمانيا تاركاً مفتاح بيته وفيها أوراقه وحاجياته الخاصة داخله لحبيبته التي التقاها في عيادة الطبيب النفساني "كميل"، الذي يتحول مع الوقت إلى مضطرب نفسياً كباقي السوريين الذي يعانون ويلات الحرب المستمرة.

في أوراق "نسيم" تكتشف "سلمى" أنه اختط يومياتها، بإضافة "ياء" إلى اسمها، وهو ما جعلها في حالة "فصام"، تعيشه ويعيشه القارئ معها حتى ما بعد الانتهاء من الرواية، فلا تعرف هي من هي بينهما.

"ها هو نسيم يسرق قصص والدي وطفولتنا الخائفة ويلبسها لشخصيته. لو قلت له، لادعى أنني وأسرتي لسنا سوى أربعة من أصل ٢٣ مليون سوري خائفين.

أو سيقول لي ببساطة إنه هو أيضاً شخص خائف يتخفّى وراء اسم مستعار. سيقول لي إنه فقد عائلته كما فقدت أم مالك زوجها.

لقد أصبحنا قصة واحدة. كما كنّا عن بعضنا بعضاً، في المدرسة وفي البيوت وفي الشوارع وفي صالات السينما القليلة الموجودة في دمشق وفي المسارح وفي الدوائر الحكومية .. ها نحن نصير قصة واحدة، نسخاً مريضة عن بعضنا بعضاً".

ويكاد القارئ يجزم أن ديمة ونوس، وفي سردها لحالة الفقد الجماعي، ولشعورها بالغياب العميق لوالدها منذ كانت في سن الرابعة عشرة، تتحدث عن والدها الكاتب والمسرحي المعروف سعد الله ونوس، وهذا يمكن استنتاجه في أكثر من فقرة، منها "... كنت أنا ظلّه في البيت. لكنه ظلّ لصيق لا يتقدم خطوة ولا يتراجع. ولا أذكر أنني فعلت شيئاً آخر في طفولتي غير الالتصاق به، وتأمله، والاستماع إلى أنفاسه، والتقاط نظرته ومحاولة تفسيرها. حفظته، وصرت أعرف ما سيقول قبل أن ينطق. لم يكن ذلك صعباً. ثمة ذاكرة مشتركة عشناها سوية بتواطؤ حزين. ثمة صراحة مرهقة. كل الأحاديث مسموحة. لا حدود تؤطر أي فكرة من الأفكار. لا وجود للمحرمات ولا لفكرة الخطأ والصواب. لا وجود للمطلق. وكل الأفكار تخضع لنقاش مستفيض لا ينتهي".

وفي موقع آخر .. "البيت كان بالنسبة إليّ هو غرفة نوم والدي المحاذية لغرفتي، حيث أمضي معظم وقتي على حافة السرير أو متمددة بالقرب منه. وكان أيضاً باب شرفة المطبخ الصغيرة جداً، التي أتلصص من خلالها على سيارات الأجرة، علّ واحدة منها تحمل أمي التي كانت تتغيب لساعات طويلة متنقلة بين عيادات الأطباء والمختبرات الطبية والبذورية، لتتبضع بكل ما شأنه رفع المناعة ...".

الأب في الرواية علوي، كما هو سعد الله ونوس، والأم في الرواية سنيّة، وهو، أي الأب كاتب أيضاً، وهو ما تكشفه عندما يصر رجال الأمن عند أحد الحواجز، على أن والدها الكاتب "مطلوب للاعتقال"، رغم إصرارها على رحيله منذ خمسة عشر عاماً، وهو العمر الحقيقي لديمة حين توفي والدها، ولا أعلم إن كانت هذه الحادثة حقيقية أم متخيلة، فالرواية برمتها، وإن كانت مبنية من وحي سيرة عائلة ونوس في جزء منها، أو هكذا يمكن الاستنتاج، إلا أنها ملتبسة تماماً كالتباس الأوضاع في سورية.

وديمة ونوس التي أثارت النظام الرسمي في سورية بقرارها ووالدتها فايزة أو فائزة نقل ٤٥٠٠ كتاب هي جل كتب والدها إلى مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، بعد رحيله، حتى إنها اتهمت بأنها "جاحدة"، ولا تزال تثيره بهجومها العلني عليه وإدانتها لـ"جرائمه"، لم تغفل ذكر المكتبة في "الخائفون"، حيث قالت وحيدة سعد الله ونوس على لسان الشخصية الرئيسة في روايتها الجديدة: "لم يترك لي بابا عائلة قبل رحيله. كان هو العائلة بأكملها، ورحل. ترك لي أمه، وبيت طفولته، والكثير الكثير من الكتب والأوراق ودفاتر مذكرات وصوراً وأقلاماً".

والخوف الذي يلازمها كما الكثير من السوريين، لا يقتصر على الواقع المعيش، بل هو خوف يعود إلى عقود، فالراوية تستعيد حالة الخوف التي كانت تعيشها في ظل نظام الأسد الأب، ومن ثم الأسد الابن، حين سردت حكاياتها في المدرسة التي "كانت ذلك المكان الذي يختبر فيه الطلاب أنواع الحياة في بلد كسورية الأسد. المكان الذي يدجّنون فيه، ويتعلمون تلقي الإهانة بصمت، ويدربّون على الطاعة، وعلى احترام القوي والمتسلط"، دون أن تنسى حين شدّتها ابنة أحد المسؤولين من شعرها، بل وصفعتها على وجهها، لتكرر "انتظار الخوف أصعب من الخوف".

وعن "الخائفون" قالت ونوس في حوار متلفز حديث معها: الرواية تتحدث عن الخوف في سورية، ويمكن أن ينطبق على بلدان أخرى تعيش شعوبها في ظل أنظمة قمعية .. الرواية تتحدث عن آخر أربعين عاماً في سورية تحت حكم حزب البعث وعائلة واحدة، فكل جيلي خلق وكبر تحت حكم رئيس واحد ورثه ابنه بشار الأسد .. الخوف في سورية شيء أساسي، لذلك أحببت أن أكتب عن خوفي، وعن خوف المحيطين بي، وعن الخوف الذي عاشه بلدي على مدار عقود .. الرواية تتمحور حول ثلاث شخصيات، ولكن الخوف هو البطل فيها، مشددة على أن الرواية تعتمد على الخيال والتخييل بالأساس، وليس على التقاطعات مع سيرتها الذاتية، مع اعترافها بصعوبة فصل التجربة الذاتية للكاتب عما يكتبه، وبصعوبة إلغاء التجارب التي عاشها ويعايشها من ذاكرته.

واستطاعت ونوس اللعب ببراعة في التنقل عبر الزمن، وما بين الأمكنة أيضاً، وحتى بين الشخوص، فالاستراحات كانت بمثابة محطات تعبئة وقود في طريق طويلة من الذاكرة .. كانت مهمة جداً للقارئ لتعبئة ذهنه بشيء من "البنزين" أو "السولار"، واحتساء بعض المشروبات الساخنة أو الباردة، أو حتى إلقاء القبض على سيجارة قبل نقلها إلى معتقل ما بين الشفاه، وإشعالها حتى آخر "دخنة" فيها، ومن ثم تدور الدواليب لإكمال الرحلة مع سلمى وسليمى، وسورية الخوف، والسوريين الخائفين التائهين حد الجنون، في رحلة البحث عن الهوية، والتي يختصرها مشهد بحث واحدة من السلميين عن الأخرى في بيروت، دون أن تعرف من هي بينهما، وحين تلمح "نفسها" في مقهى هناك، ترفض الأخرى، وهي نفسها الثانية، الاستجابة إلى نداءاتها وترحل الثانية إلى المجهول، فيما الأولى تعود إلى أمها ودمشقها، فديمة ونوس كما الكثير من الخائفين السوريين لا تزال تبحث عن نفسها، وعن وطنها بين ركام ذاكرة، وصرخات حاضر، ومستقبل ضبابي.

«جهة الشعر» .. نعي أشبه بإغلاق تلفاز أو محطة إذاعية !

كتب يوسف الشايب:

يبدو أن إيمان الشاعر البحريني قاسم حداد بأهمية التعامل مع شبكة الانترنت بصفتها طريقة للاتصال الإنساني وليست وسيلة للانتشار الإعلامي، لم يسعفه دون أن ينشر ما يشبه النعي لـ"جهة الشعر" بدلاً من نص جديد، أو حوارية، أو ترجمة، أو تعريف بهذا الشاعر أو ذالك، فالموقع الشعري الذي تحول مع الوقت إلى مرجع عالمي، أعلن أنه "سوف يتوقف عن البث" في عمر الثانية والعشرين، وكأنه تلفاز أو محطة إذاعية، فهو لم يعلن انه سيحتجب، المصطلح المرافق لإغلاق المواقع الإلكترونية، ولم يقفل أو يتوقف كما في حالة المطبوعات من صحف أو مجلات، أو تلك التي تدور في فلك المطبوع كدور النشر والمكتبات والمطابع وغيرها.

وأرجع حداد، في رسالة نشرها على الموقع، قرار إغلاق الموقع إلى الظروف المادية، وعدم توفر الدعم المالي، وهو أمر تعانيه الكثير من المواقع الثقافية في الوطن العربي، حيث كتب على واجهة "جهة الشعر": الأصدقاء الأعزاء.. سوف يتوقف موقع جهة الشعر عن البث لأسباب تتعلق بعدم توافر الدعم المادي.. ونود هنا ان نتوجه بالشكر لكل من وفر الدعم المادي له على مدى العشرين عاما السابقة والاعتذار لأصدقاء "جهة الشعر" الذين بمشاركتهم النشر في الموقع اسهموا فعلا في الإنجاز الذي تحقق طوال سنوات عمل الموقع منذ انطلاقته العام ١٩٩٦".

حداد، كان قال من متحف محمود درويش، قبل عامين: لو كان النظام العربي تاريخياً يصغي للشعراء والأدباء والفنانين، لربما صرنا في وضع أفضل، لكون الشعراء يسعون إلى الحلم، وإلى الحرية، وإلى العدالة الاجتماعية .. هل صادفت نظاماً سياسياً عربياً يعالج ولا يحل .. يعالج مشاكله بغير الوسائل الأمنية.

وأشار حداد إلى أن المعارضة العربية لم تكتسب الدرس النضالي الذي ضحت له الأجيال السابقة .. وقال: لطالما أؤكد أن السلطة السياسية العربية أكثر خبرة من المعارضات العربية، لأنها تستطيع أن تدير مشاكلها لا أن تعالجها، باتجاه إفشال أي مشروع إصلاحي .. هذه مشكلة المعارضة العربية.

وأضاف: المعارضة العربية كما الأنظمة، لا تحترم الثقافة ولا المثقفين ولا المبدعين، وأكثر من ذلك تنكل بهم بما قد يضاهي تنكيل السلطات السياسية العربية بهم .. هو خلل تكويني موروث، فالمعارضة كما السلطة ورثت الموقف السلبي من الثقافة والمثقف كأنه موروث مقدس .. لو كانت المعارضة العربية تحترم الثقافة، لكان حظها من التطور أكبر.

ودلل على ذلك بالقول: في فعاليات كثيرة على المستوى العربي، لا أصادف رموزاً من المعارضة تشارك في حضور أمسيات شعرية أو أدبية أو ندوات أو معارض فنية وغيرها، إلا نادراً .. كمعارضة، لكي تقنع الناس بأن بديلاً مناسباً ومستقبلياً للسلطة التي تسعى إلى إسقاطها عليك أن تمنحنا إشارات مختلفة، ودلائل على أنك مختلف عن هذه السلطة، كأن تكون ديمقراطياً، والمعارضات العربية تفتقد لهذا الشرط بالدرجة الأولى، فلا تكاد هذه المعارضات تستوعب اختلافك في تفصيلة صغيرة معها، لذلك تكاد هذه المعارضات تتحلل، لأنها لا تستوعب المختلفين معها.

وشكل موقع "جبهة الشعر" منبراً مهماً لرواد الثقافة والنصوص الأدبية والشعرية، وحيث دأب الكثير منهم على نشر أعمالهم الجديدة، وظل الموقع متماسكاً طيلة الاثنين وعشرين عاماً الماضية معتمداً على دعم مادي بسيط، لكن وبعد كل هذا الجهد يسدل الستار على الموقع، وفي قلوب الكثيرين حسرة وألم.

وجاءت الفكرة استجابة لاقتراح قدمه الصديق عبيدلي عبيدلي وهو من شركة "النديم لتقنية المعلومات" التي تتولى الناحية التقنية والفنية في "الجهة" منذ إطلاقها، كما سبق وأشار حداد، لافتاً إلى ان الفكرة بدأت صغيرة وعبر مشروع فردي وشخصي، ولكن سرعان ما "أصبحت مشروعاً جماعياً تساهم فيه كائنات لا تحصى من أصقاع العالم".

وأضاف حداد، في حوار يعود إلى اثني عشر عاماً، أي في الذكرى العاشرة لـ"جهة الشعر": كانت البداية تقوم على نشر الشعر العربي في لغته، ومع الوقت اشتبكنا بجماليات التعدد اللغوي لنشر الشعر العربي في أكثر من سبع لغات.. بدأنا كمن يتعثر في نوم موحش، ولكننا الآن نسبق أحلامنا في أكثر الآفاق رحابة. فقد كنا نسهر على بناء المحتوى الثقافي النوعي الرصين في "جهة الشعر" من دون أن نغفل عن تطوير الناحية التقنية وتحديثها، ولكن دائماً من أجل بلورة وسائط عرض النصوص وسرعة وصول المستخدم إلى المحتوى.

طوال أكثر من عقدين لم يكف قاسم حداد عما حققته "الجهة" وعن تعداد منعطفات التحول والتحديث فيها، التي انتهت الى تحول "جهة الشعر" من موقع لنشر الشعر الى "مصدر عالمي من مصادر المعلومات الموثوق بها عن الإبداع الشعري العربي، بصفته مرجعاً معتمداً ورصيناً ودائم التحديث"، بل اعتباره "ورشة عمل شعرية عالمية بالمعنى الأدبي والتقني للكلمة".

وقال حداد: طوال سنوات أخذنا في الاعتبار كلام الشاعر الفرنسي رينيه شار مأخذ الجد، عندما قال في قصيدة له: "المستحيل لا نبلغه، لكننا نستخدمه كقنديل".. رأينا في هذه الحملة تعبيراً عن أحلامنا، حتى أننا وضعناها تعويذة للموقع في انطلاقتنا الأولى، والحق أنها منحتنا الثقة في قدرتنا على مستحيلات كثيرة، مستحيلات هي في بساطة الإنسان وفي عمقه في اللحظة نفسها.

واعتبر حداد أن تجربة "جهة الشعر" في سنواتها الاولى جاءت مملوءة بالدروس، ومنها إمكان نجاح المشروع الشخصي في حقل العمل الثقافي، مع حيوية المحافظة على استقلالية المشروع واقتراح خصوصيته، في الذائقة والإرادة، فضلاً عن تنمية الرغبة في تجاوز أوهام أو قيود المحلية والإقليمية التي لم تعد تناسب عصر الانترنت. والذهاب بثقة الإبداع لمشاركة العالم في اكتشاف المستقبل، واعتماد مبدأ البحث عن المعلومة والذهاب إليها لنراها في الموقع، وليس انتظارها.

من رام الله، اعترف حداد بجرأة المبدع الواثق: أنا لست راضياً عن أشياء كثيرة، وأهمها ما كتبته، مستذكراً مقولة للشاعر التركي ناظم حكمت يقول فيها: وضع الشاعر في الجنة فقال "آه على وطني"، لافتاً إلى أن مقولة حكمت هذه ساعدت على صقل معرفته بالحياة، فالشاعر لا يقترح بديلاً مادياً نهائياً منظوراً وصالحاً .. هو يحلم.

وأضاف: أرجو ألا يطالب الشاعر بأن يقوم بمهمات الآخرين ممن تقع على عاتقهم مسؤوليات لا يقومون بها، فعندما ينهزم الساسة والعسكر يتذكرون أن ثمة شاعراً ومثقفاً وأديباً ومبدعاً هناك، وهو لربما سبب المشكلة والأزمات .. الشاعر يحلم، وكل الفلسفات في حياتنا بدأت بالأحلام، وكل الفلاسفة يؤكدون شعرية النواة التي يصدرون منها، والحضارات تقوم، أو بُناة العالم يقومون على أحلام يطلقها: الشعراء، والكتاب، والفنانون، والمبدعون.

سيف الرحبي في أعماله الشعرية.. حكايات وحيوات في قصائد وسرد

"كانت البلاد غارقة في مياه الأسلاف والنأي عن العصر ومصباته وعواصفه.. ربما كتبت أول قصيدة بنظام مغلق في كهوف السلف ولغته، لأن أي خروج عنه مروق وإلحاد، وما زال أصحاب هذا الرأي الظلامي عند رأيهم حتى لحظتنا الراهنة، وبشكل أكثر عنفاً وتطرفاً ولا عقلانية. لكن ما ظل يطاردني لاحقاً، بجانب التكوين الشعري الكلاسيكي، الذي لا أشك في الإفادة منه، هو تلك القصيدة العنيفة التي يكتبها المكان نفسه بغموضه وموته، وكيف تنبجس الحياة الشحيحة من مخالب ذلك الموت القاسي ذي الحضور الكلي. كانت الجنازة اللامرئية في رأسي بحجم ذلك الفراغ الذي يتدفق فيه الزمن كثيفاً وحاداً، محاطة بجوقات الناديات والمنشدين".

بهذه العبارات روى الشاعر العُماني سيف الرحبي، شيئاً من سيرته الذاتية، والتي ضمنها الطبعة الأولى من "الأعمال الشعرية"، الصادرة عن "رياض الريس للكتب والنشر".

الرحبي، أطلق المجموعة المكونة من ٣ أجزاء في ٣ بورتريهات رسمت على أغلفتها تعكس التحولات الزمنية له، في معرض مسقط الدولي للكتاب، بالتحديد في ركن جائزة السلطان قابوس، وهي الجائزة التي صدرت "الأعمال الشعرية" لواحد من أبرز القامات الشعرية العُمانية في العصر الحديث، وكان حاز عليها في العام ٢٠١٣.

سيرة الرحبي الذاتية سطّرها بقلمه في لمحات سردية تزيّن أشعاره الممتدة على مدار عقود.. أشعاره التي نجت ولا تزال من أي بوادر لشيخوخة مبكرة، أو غير مبكرة، فالكلمات والصور والمجازات لا تزال في قمة ألقها، لشاعر صاحب تجربة مغايرة.

تحدث الرحبي عن "الجو القاهري" وعن "الجو الطلابي" الذي ابتلعته السياسة على اتجاهاتها اليسارية ذات الطليعة الفلسطينية، وعن ولوجه بوابة القراءة للأدب الحديث برموزه وروّاده ووجهاته المختلفة عربياً وغير عربي، منطلقاً من "البوابة القاهرية".

اعترف الرحبي في سيرته المختصرة: قرأت شعراء التجديد الأوائل في مرحلة الحداثة الشعرية العربية من السياب وقباني وأدونيس والخال وعبد الصبور، إلى محمود درويش .. في الطور الثاني من عمري، وفي أواخر السبعينيات والثمانينيات، شهدت نوع ذلك الارتجاج في سياق الكتابة العربية الذي أنتمي إلى زمنه هذا، لافتاً إلى أن "الشعر الجديد صار يميل نحو النقصان والتفاصيل والأجزاء، وهي سمات لم نعدمها في المرحلة السابقة، ولم يكن وضعها في مقابلة ثنائية مع ما اصطلح على تسميته شعر القضايا الكبرى أو الكلية وضعاً موفقاً".

شعراً، يرصد الجزء الأول بقصائده مرحلة البدايات منذ مجموعة "نورسة الجنون" الصادرة عن دار الجرمق في دمشق العام ١٩٨١، انتهاء بـ"يد من آخر العالم" الصادرة في بيروت العام ١٩٩٨ الصادرة عن دار المدى، مروراً بـ"قصائد لأميرة الخرائب ذات الأحداق الوثنية"، و"رأس المسافر"، و"مدينة واحدة لا تكفي لذبح عصفور"، و"رجل في الربع الخالي"، و"جبال"، و"هذيان الجبال والسحرة".

الرحبي يرى أن "اللغة مهما كانت محملة بتاريخها الطويل وتراكماتها، ليست ممارسة قبلية ومعطاة سلفاً"، مشدداً على أن "النقض الشعري والأدبي لما هو سائد لا يرتبط بمشاريع وتكتيكات تطبع مرحلة بعينها، بل هو حاجة داخلية صميمية، بمثابة الدافعة الوجودية للكتابة".

الجزء الثاني من "الأعمال الشعرية" عبارة عن مختارات من مجموعات شعرية متعددة تختتم بقصيدة "بعصا الأعمى في ظلام الظهيرة" من مجموعة "الجندي الذي رأى الطائر في نومه" الصادرة عن دار الجمل العام ٢٠٠٠، سبقها قصيدة "البحيرة المسحورة التي غرقت فيها أخيراً"، وأخرى تحمل اسم المجموعة، والأمر ذاته يحدث مع مجموعة "مقبرة السّلالة" الصادرة عن ذات الدار بعد سابقتها بثلاثة أعوام، ومما نشر من قصائدها "الحصان المربوط على نخلة بأطراف البلدة"، و"الديكة وحدها تحاول إنقاذ المشهد وتعيد مياهاً بعيدة في الذاكرة. وتحت عنوان "قطارات بولاق الدكرور" تتجمع قصائد: "على حد الصيف عن البراكين والموتى والحيوانات"، "نجمة البدو الرحل.. أو القاهرة"، و"منازل وأصدقاء".

الشاعر سيف الرحبي يوقع أعماله الشعرية في معرض مسقط الدولي للكتاب.

والكتابة بالنسبة للشاعر الرحبي "ليست لعباً لفظاً ولا صوراً بهلوانية تتوسل الإدهاش البرّاني لإخفاء فقرها الدلالي والروحي. إنها لعب أكثر عمقاً وجمالاً، إنها الإقامة في حدود القسوة والموت".. فيقول: نحاول أن نكتب من غير خطط ولا مشاريع، ربما لأن الأعمى يجلي وضوحه وسط ظلامه الخاص.

وما بين العامين ٢٠٠٧ و٢٠١٤ تتراوح نصوص الجزء الثالث من "الأعمال الشعرية"، تحديداً من ثلاث مجموعات هي: "سألقي التحية على قراصنة ينتظرون الإعصار"، و"نصوص مفتوحة رسائل في الشوق والفراغ"، و"سناجل الشرق الأقصى.. الجزر الآسيوية".

وكان لافتاً في كل من الأجزاء الثلاثة، اختتام كل منها بـ"مقتطفات من دراسات وكتابات عن الشاعر"، فالشاعر المصري فاروق شوشة كتب ذات مرة: "يكتب سيف الرحبي قصيدة النثر، ساكباً فيها وهج شاعريته وحصيلة خبراته الوجودية واللغوية"، في حين أشار د. حسام الخطيب إلى أن "حصيلة الشاعر العُماني سيف الرحبي تقدم تجربة فريدة في باب الرؤية الشعرية، تسمح للمرء بأن يصنفه في خانة شعراء الرؤى المتماسكة على المستوى العربي، وربما العالمي إلى حد ما".

وبينما يرى يوسف الخال أن "حداثة سيف الرحبي ليست حادثة افتعال، ولو كانت كذلك فلا يستحق دمعة حبر، إنها انفجار الوعي والحساسية الجديدة في تعبيرهما عن شقاء الإنسان في غربته ومنفاه. تقرأ ذلك في لغة شعرية متميزة، وسط فوضى الهويات الشعرية السائدة"، يصفه الشاعر والناقد اليمني عبد العزيز المقالح بـ"المغامر المسافر في دنيا الإبداع منذ عقود، لا يكل ولا يمل ولا يستريح سعياً وراء فك أسرار هذا العالم الذي يعيش واقعه فقط، ويحاول الشعراء الوصول إلى نقيضه المتخيل والبديل".

بديعة زيدان

نقطة ضوء

سلِّم على نادية مراد..!!

حسن خضر

ها هو قد أصبح اليوم في السابعة والسبعين. ليس من الاستثنائي أن يعيش الإنسان حتى السابعة والسبعين، ولكن الحياة التي كانت كريمة معه، ومعنا، ضنّت عليه، وعلينا، بما لا يدخل في باب الاستثنائي، وانسحبت من جسده قبل عشر سنوات. وعلى مدار كل تلك السنوات، أفكرّ في الثالث عشر من آذار من كل عام: ماذا يليق بمحمود درويش في مثل هذا اليوم، وأتفادى كمن يهرب من أفعى حتى مجرّد التفكير في مَنْ يقفون على كتفيه، اليوم، لتبدو قاماتهم أطول.

يليق به في غيابه ما كان لائقاً في حضوره. ولن يتأتى لأمر كهذا أن يتجلى في كلام ما لم يكن شخصياً تماماً، وكما كان دائماً، التفكير بصوت مرتفع، وتبادل للأفكار، يتجاوز الشخصي إلى العام. لم يكن مفتوناً بصورته في المرآة، ولا كانت تفاصيل حياته اليومية، والشخصية، تبدو وكأنها ظاهرة استثنائية في نظام الكون. كان رهينة جوع دائم إلى المعرفة، يطارد الأفكار، والأخبار لعل فيها ما يضيء شيئاً في مكان ما من المخيّلة، أو يفتح نافذة مُغلقة.

لذا، أفكرّ، اليوم، ربما التقينا في الصباح، أو سنلتقي هذا المساء، على كأس من النبيذ، لن يتوقف طويلاً أمام "كل عام وأنت بخير"، بل سيقفز إلى خبر في الجريدة، أو يستل من جعبة لا تنضب مفارقة تستدعي التأمل. وليس في ذهني، اليوم، أبعد من كتاب بعنوان "آخر البنات" فرغت منه ليلة أمس. سأقص عليه ما قرأت، فلا يليق بيوم كهذا أكثر مما كان لائقاً في يوم مضى.

صدر الكتاب قبل أشهر قليلة، بالإنكليزية، صاحبته امرأة يزيدية (أقول: لا أفهم لماذا يسمّونهم أيزيديين هذه الأيام) اسمها نادية مراد، احتل الدواعش قريتها في العام ٢٠١٤، كانت يومها في الحادية والعشرين من العمر، وسبوها، مع كل نساء القرية، بعدما قتلوا البالغين من الذكور، وبينهم ستة من إخوتها وأقاربها.

أقول: لو كان الأمر بيدي لجعلت من الكتاب، بعد ترجمته وتوزيع ملايين النسخ منه، جزءاً من المقرر الدراسي في المدارس الثانوية والجامعات. يُعدّل وضع نظارته: لماذا؟

أقول: لتدريب الأولاد والبنات في بلادنا على الكراهية. يعرف، كعادته، أن الذهاب إلى حد أقصى يعني أن ثمة محاولة لبلورة مرافعة منطقية من نوع ما. فلا أحد، على الأقل، في أوساطنا، يتكلّم عن تدريب الناس على الكراهية. لذا، الكراهية، في سياق كهذا، تعني إنشاء حاجز، بالمعنى النفسي، وحتى الإنساني، بيننا وبين أشخاص يعتقدون أن معتقداتهم الدينية تبرر استعباد الآخرين وقتلهم.

ولن يكتمل أمر كهذا دون الاجتهاد في تحويل موضوع الضمير، والأخلاق، إلى جزء من الهم الثقافي العام. سنجد، دائماً، من يتكلّم عن الضمير والأخلاق، في العالم العربي، وكأنها من حواضر البيت. وهذا ليس صحيحاً. ففي عالم أنجب داعش، بكل تسمياتها وراياتها وألوان طيفها، ينبغي النظر إلى وجود هؤلاء كدليل على مرض الضمير والأخلاق.

كانوا، مثلاً، يتداولون نادية مراد كبضاعة عمرها الافتراضي لا يزيد على أسبوع من الزمن، لتنتقل من بيت إلى آخر، ومن مالك إلى آخر، بالبيع والشراء، أو بوصفها هدية، وإذا عصت وهبها المالك للحرّاس ليتداول عليها أكثر من شخص في يوم واحد كنوع من العقاب. وقد أحضروا لها أدوات الزينة والمكياج، والثياب الفاضحة، وأجبروها على النطق بالشهادتين. ولم يبد أحد من هؤلاء أدنى قدر من الشفقة.

أقول: في حكاية نادية مراد فنتازيا جنسية يبدو فيها حتى الماركيز دوساد مجرّد صبي قهوة في حضرة كبار المعلّمين. فالمذكور كان يلعب بالعلاقة بين اللذة والألم، أما هؤلاء فكانوا يلعبون بالعلاقة بين المُقدّس والعنف، إلى حد تبدو معه الفنتازيا الذكورية، في أكثر تجلياتها عدوانية، نوعاً من العبادة. وقعت أشياء كهذه، في أربعة أركان الأرض، على مدار قرون. ومع ذلك، في كل عودة للمكبوت إلى السطح، وخروجه من الكهف، ما يبرر الحجر الصحي، بالمعنى الثقافي على الأقل، وهذا ما لم تكف شعوب وحضارات مختلفة عن عمله، وما يفرض نفسه على عالم العرب اليوم.

هل تعرف؟ أكثر المشاهد في حكاية نادية مراد إيلاماً كان صراخ البنات اليزيديات في مركز بيع السبايا في الموصل، كان صراخهن يدوي في الحي كله، وكان الجيران يسمعونهن، بالتأكيد، ولكنها تصف كيف كان هؤلاء يجلسون في بيوتهم، ويُعدّون العشاء لأطفالهم، وكأن الصراخ يأتي من كوكب آخر. في كل الروايات عن الهولوكوست يتكلّم الناجون كيف كانوا يُساقون في الشوارع، على مرأى من الناس، إلى قطارات الموت، وكانت حياة الناس طبيعية تماماً، وحتى الجيران كانوا يرمقون من كانوا قبل قليل جيرانهم بحيادية وبرود.

وثمة مسألة إضافية: كوننا ضحايا يستدعي حساسية أكبر إزاء الضحايا الآخرين، لا التمركز المرضي على فكرة الضحية، ولا الخوف على فقدان أولويتها ومكانتها في ضمير العالم، أو حتى ابتزاز العالم بها كما يفعل الإسرائيليون. بهذا المعنى تتضح أكثر دلالة الحرص على تحويل كتاب "آخر البنات" إلى جزء من المقرر الدراسي، وإلى مُحرّض على الكراهية.

وفي هذا المعنى، أيضاً، ما يشبه اعتذاراً لنادية مراد، وكل اليزيديات واليزيديين، الذين رفضوا التنازل عن هويتهم الدينية والثقافية، ودفعوا ثمناً مُروّعاً. ولو كان الأمر بيدي لفازت نادية مُراد بجائزة تحمل اسمك يا محمود. هل أطلتُ عليك؟ لا أجد في ذهني غير هذا اليوم. وكأنه ينطق الآن: سلّم على نادية مراد، وأخواتها. قل لها: من فلسطين يُسلّم عليك محمود. الفلسطيني يزيديٌ، أيضاً.